

تولستوى في مدرسته

لقد آن أن أذكر للقارى، على سبيل الفكاهة والمهظة ما وصف به تولستوى مدرسة شيدها هو على أساس الخبرة قال : -

« يدخل المدرس الغرفة ، فيجد التلاميذ على الأرض ، بعضهم فوق بعض ، وهم يصيحون « ما أقل عددنا ! الأناى البقية فننضم اليها ! » ويستغيث واحد منهم « لانضيقوا على انخناق أيها الصبيان » أو « لا تقتلوا شمرى » فلا يجد آذانا مصغية ، ولا قلوبا واعية . وسرعان ما ينادى المدرس باسمه ، قائلا يا بطرس مر التلاميذ بجمعوا عنى ويتركونى وشانى . . وماهى الا أن يفرغ المسكين من شكايته ، واستغاثته بالأستاذ ، حتى يصيح الغامان ، « عم صباحا يا بطرس » وهم فى لعينهم مستمرون . يتبع المعلم نفر قليل الى القمطر ، فيوزع عليهم بعض الكتب ، ويسأله بعضهم ، وهم رفود ، يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ، أن يبسط اليهم ذراعيه بالكتب ، ويسارع اليه آخرون ، وقد علا صياحهم « أعطنى كتاب كذا أو كتاب الأمس . أو كتاب المؤلف الفلانى » ويبقى منهم اثنان طربحان على الارض فيدعوان المعلم الى أن يعطيها كتبا ولكن بأمرهما بقية التلاميذ بالسكون وعدم الكلام .

يسود النظام ، ويهدأ التلاميذ ، ويوجهون عنايتهم الى كتبهم فيقرءون منها ماشاءوا ، حتى ينتهى الدرس كما بدى . . وأونة يستولى

التعب والقلق على التلاميذ ، فلا تميل أنفسهم الى العمل ، ولا يرغبون فيه ، ويفادرون بعضهم الحجره ، فيسألهم الاستاذ « ما الخبر ؟ » فيجيبه بعض التلاميذ « أنا ذاهبون الى منازلنا » فيقول « ماذا تعمل في الدروس وقد بقي درس الغناء » فلا يردون عليه . ثم يتبعهم غيرهم قائلاً « لقد انصرف التلاميذ ذاهبون الى منازلهم » فيسألهم المعلم « من قال ذلك » فيقول التلاميذ « لقد ذهبوا » فيسألهم المدرس « وكيف ذلك ! » في هذا الوقت تأخذ المعلم الحيرة فلا يدري ماذا يصنع ، ويزيد في حيرته أن تقوم الحرب على قدم وساق بين تلميذ متخلف وآخر حضر لياخذ قبضته .

هذه نتيجة الحرية المطلقة في التربية ، وأثر من آثار الغلو المقوت ومجاوزه الحد وضيق الفكر . وما نتيجة الاستعباد والسلطان النام بأقل منها خطراً . وقد تلمس العلامة « أمند هولس » الأعداء لتلستوى وبين الأسباب التي دعت الى النتيجة السالفة الذكر حيث قال ما معناه « هل فكرة تربية التلميذ في جو الحرية من أضغاث الأحلام ؟ ان تجاربي الواسعة ترشد الى أنها ليست من الأحلام في شيء ، وما كنت لأتظن من عالم فاضل ومرب واسع العقل كالاستاذ « آدمس » أن يفض الطرف عن تجاربي هولستوى ويزدرجها ولا يحلمها المحل اللائق بها . أن رجال الشرطة الروسية أغلقوا المدارس المذكورة بالرغم مما كان لها من الأثر الصالح في نفوس التلاميذ فقد أحييت فيهم قوة النشاط ، وزادت مقدرتهم ، وحببت اليهم العمل . ولذا بحثنا عن السبب

في الخيبة - اذا اعتبرنا تلك خيبة - وجدناه ان نواستوى لما كان شديد
الثقة في الطبيعة الانسانية، منح التلاميذ حرية تامة بعد ان طال عليهم
المقام تحت ضغط شديد فلم يحسنوا استعمالها ولم يقفوا عند حد مناسب
فكانوا كمن طال عليه المقام في قاعة مظلمة ثم دفع به نجاة الى ضوء
الشمس اللامع وان كثيرا من المرين قد جرب فكرة الحرية وانت
نجا ربهم بنتائج عظيمة ومن هؤلاء السيدة مريا منتصوري والعلامة
هو مرين »

ولقد ان نوفق بين هذه الآراء ونستخلص منها مذهبا معتدلا
تتمسك به في أمور التعليم :-

ان الطفل عاجز عند ولادته لا يستطيع القيام بمحاكمته ولم تحنكه
التجارب وليس له خبرة بالحياة فلا بد من تعهده وارشاده ووضع حد
لأعماله لا يتعداه حتى يصل الى كماله المطلوب ولو ترك وشأنه لكان
فريسة لغرائزه الشهوانية وميوله المنحطة قال بعض الالمانيين «لا شك
في أن للوالدين الحق في تقييد أبنائهم وأنى لأحترم حرية غبرى لاني
اعتبره انسانا كاملا خلقا وخلقا ولا سبيل الى الوصول الى آماله في
الحياة الا اذا كان له من الحرية نصيب ولست بالحكم في أموره لأنه
مثلى أما الطفل فناقص لا بد من تعهده وغرس الفضيلة في نفسه وعلى
هذا تقييد الصغير واجب وترك الحرية للكبير محتم الا أن ذلك التقييد
لا مسوغ له الا اذا خيف استعمال الحرية فيما يعود بالضرر لا غير
وكل تقييد سوى هذا لا مبرر له

أن الصبي لا يمش منفردا منعزلا عن الناس وكثيرا ما تتضارب
مصالحته الفردية مع المصاحبة العامة هذا الى أنه في جماعة ذات نظام
خاص ولها آداب وطرائق في الحياة وعادات ودين ورثتها عن السلف
فكل شيء ينافي الآداب أو يخل بالمروءة أو يدعو الى فساد الحياة
الاجتماعية يجب أن تحول بين الناشئين وبينه فينبغي إذن أن يشجع
الصبي على حرية العمل والفكر والقول الا اذا كان من وراء ذلك خطر
كثيرا ما سمعنا بغض الناس ينادى بصوت جهير أن امنحوا
الاطفال حقوقهم ولكن هذه جملة عامة ذات تفسيرات مختلفة فان
أرادوا بحقوق الاطفال الحرية المطلقة فذلك مالا سبيل اليه لما قدمنا
وأن أرادوا احترام ارادتهم ومحبتهم وأرشادهم فذلك ما ندعو اليه
فالانسانية التي ترى مظهرها العقلي في مهد الطفولة كما ترى الشمس عند
بزوغها من مهدها أو الزهرة عند تفتح أكرامها يجب أن تحترم وتعامل
هيبتها القلوب ولكن ليس من الحكمة في شيء ما يميل اليه بعض
الآباء من التساهل الذي يثول بالناشئين الى الخراب العاجل واعلمهم
يذكرون ما يقول الشاعر العربي

فتمسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من برحم
أن سيطرة الآباء والمدرسين لا بد أن تكون مشوبة بالشفقة
تسهر بثقة كثيرة بالتلميذ حتى تبعث على احترامه لنفسه واحلالها
الحل اللائق بها وليس شيء أضر بالناشئ من عدم الثقة به وردعه

وزجره وتقريبه والخط من قيمته لأنه اذا هانت عليه نفسه لجأ الى
مالا يحمد ولم يبال بالنقد ولا الأرشاد فالنفس ما دامت كبيرة عظمت
آمالها في الحياة وتعب في مرادها الجسم

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

يقولون لا معنى للحرية بدون واجب ولا للطاعة اذا لم يكن
هناك اختيار وهذا بين لأن الناس انما يمتازون عند قيامهم بالاعمال التي
تعهد اليهم والرجل الذي لا يخضع لواجب ولا يجيب صوت الحق ولا
ما على عليه ضميره الطاهر ودينه المقدس لا قيمة له وانا اذا حررنا على
الناس الاختيار ومنعناهم حرية التصرف سلبناهم حقا طبعيا ألهيا
وجعلناهم أشباحا يقلبها الانسان كيف شاء يقول الشاعر العربي

لا ترجع الانفس عن غيرها مالم يكن منها لها رادع

ولا شك ان هذا بيت مملوء بالحكمة وحبذا لو كان للمدرسين أن

يتمسكوا به في دروسهم وجميع أعمالهم

ان بعض الناس قد يلجأ الى الشدة حبا فيما يسميه بالنظام ولا شك

أنه لم يفهم معنى هذه السكامة فان النظام لا يحرم على التلاميذ الحركة

والتنقل في حجرة الدراسة مادام ذلك يتفق مع المصلحة العامة وقد قالت

السيدة موربا منتصوري « ان حجرة ننقل فيها الصبيان بعقل وروية

وعلى مقتضى المصلحة من غير أن يصدر عنهم ما يفاق الراحة أو يتنافى

الآداب لحجرة دراسية يتمثل فيها النظام بأجل معانيه » ولهذا المناسبة

أذكر أن هذه السيدة تشجع على المدارس في الوقت الحاضر وتعتبرها

سجوننا وعقبات تحول دون نمو الطفل وتأسف شديد الاسف لأن
بعض العلوم الحديثة والتجارب العامية كانت وسيلة لذلك فللسكريس
والقنطرة مقياس خاص وكلاهما ثابت في الارض والتلاميذ بينهما كأنه
قطعة جيجر لا يشعر بشيء ولا يبالي بالضغط وليس الضغط الفكري
بأقل من الضغط المادى

من الحزم أن نسمح للتلاميذ بأن يكون لهم نصيب في ادارة
المدرسة وأعمالها ولا سيما ما يختص بالألعاب ولا شك أن تجاربهم في
مثل هذه الحالة ستكون منبعا من مائة يستمدون اذا خرجوا الى
الحياة العملية الاجتماعية - من الحزم أن نشجعهم على اختيار المواد
الدراسية التي تناسب مواهبهم الطبيعية وان نبعث فيهم جهاد دراستها
بجد واخلاص وتطبيقها على أمور الحياة

محمد على المهزوب

مدرس تربية بدار العلوم